الفصل السابع

موقف الفلاسفة من التنبؤ بالغيب

لقد سلم معظم الفلاسفة الأقدمين بالتنبؤ بالغيب وإن تفاوت تسليمهم قوة وضعفاً مع استثناء الفيلسوف اليوناني أكسانوفان فهو الوحيد الذي أنكر التكهن بحذافيره مع تسليمه بوجود الآلهة. فقد كان الفيلسوف سقراط يعتقد بأنه يعمل ويتكلم تحت تأثير إلهام إلهي. وكان على يقين من أن إلهاً خيراً يعين الناس حين يكونوا في شك من أمر المستقبل، فالإنسان لا يستطيع بعقله وحده أن يعرف على وجه الدقة الاتجاه أو التصرف الذي يحسن التزامه. لذلك كان سقراط يؤنب الذين يعملون بغير ما تنذر به الآلهة ويحض أصدقاءه على استشارة الوحي ولاسيما وحي دلفي. ومن هذا نرى أن سقراط كان يتشيع للتكهن أو يرى بتعبير أدق أن من واجب المرء أن يستشير الآلهة في الحالات الجدية الخطيرة أما في الأمور التى يستطيع المرء أن يحكم عليها حكماً مسبباً قائماً على العلل التي تبرره فإن سقراط يرى أن استشارة الوحي في مثل هذه الحالات أمر يخالف العقل.

أما أفلاطون فقد كان فن التكهن عنده أجمل الفنون جميعاً وقد وردت في كتبه كثير من الفقرات التي تقرر اعتقاده في التكهن بالغيب. وكان من رأى أفلاطون أن القوانين الجميلة المقررة لا ينبغي الإقدام على تغييرها. فإن كان من الضروري إجراء تغيير فيها وجب ألا يقدم المشرع

على هذا إلا بعد أن يستشير جميع الحكام وكافة أفراد الشعب وكل أنواع الوحي حتى إذا وافقوا على التغيير جميعاً جاز الإقدام عليه.

وقد ظفر التكهن بالغيب بمكان مرموق في الدولة أيام أفلاطون وقد عرض لبيان هذا في كتبه النواميس والجهورية والمائدة وطيماوس التي يعرض فيها نظرية التكهن عن طريق الإلهام الإلهي مستخدماً لغة الصوفية في اشتراط هدوء النفس التام وتعطل الفكر بالنوم وصقله بالمرض أو بحالة الجذب التي تعتري الإنسان.

أما الفيلسوف أرسطو فكان يعتبر التكهن بالغيب الذي يقوم على مشاهدة الشواهد الظاهرة وفن العيافة وملاحظة الطيور كلها غير خليقة باهتمام الفلاسفة. إن فلسفة أرسطو تستبعد بوجه عام كل ما فوق الطبيعة وإن كان يرى أن من الممكن أن نصل بشأن المستقبل إلى تخمينات وأن نبني آمالاً، ومن هنا كان في الإمكان قيام علم للأمل الممكن وهو يريد أن يستبدل بالتكهن نوعاً من التنبؤ المعلل الذي يقوم على أسباب ويستند إلى الاستقراء وحساب الاحتمالات. أما عن التنبؤ في الأحلام فقد وضع عنه بحثاً قال فيه أنه لا يسهل علينا احتقار هذا النوع من التنبؤ ولا الاعتقاد في صحت. أما الرواقيون فقد تولوا الدفاع عن كافة ضروب التكهن بالغيب على وجه التقريب.

وكان فيثاغورس يميل إلى أن يعرف بين بأنه من أهل العيافة. ويدل موقف ديمقريطس إزاء التكهن على إسرافه في الاهتمام بالصفة الآلية في مذهبه فليس ثمة شيء عنده إلا الجوهر الفرد والخلاء وكل ما هو موجود

وكل ما يقع ينبغي أن يفسر باتصال الجواهر الفردة. وهذه الذرات لا تخضع لغير القوانين الآلية. وقد يرى وجود كائنات أعلى من الإنسان وأوفر منه حظاً في القدرة وأطول منه أجلاً تتألف من جواهر فردة إلا أنها جواهر لطيفة جداً تتحرك في الفضاء بسرعة خارقة. كانت تسمى في بعض الأحايين بالجن سواء أكانت خيرة أم شريرة. وكانت تلقى صوراً تراها أعين الناس وأصواتاً تصل إلى أذهانهم وبهذا يمكن تكشف المستقبل.

وإذا كانت حواسنا إبان النوم منصرفة عن إدراك الأشياء المحيطة بنا فإن الأحلام تحمل أنباء المستقبل. وفي بعض الحالات يمكن لبعض الناس الذين يعتريهم الجذب أن تهيأ لهم رؤى أو أصوات تفد عن كائنات أكمل منها تكويناً. وإن كانت هذه الصور التي تنبعث بها الجن قد يشوبها تقلب الهواء وسقوط الأوراق مما يجعل النبوءات في فصل الخريف كثيرة الأخطاء.

أما الذي عليه رأى أكثر الفلاسفة المسلمين فهو أن الله وحده هو علام الغيوب ولكن ليس معنى استئثاره بالغيب حرمان البشر كافة من القدرة على معرفة الغيب، بل إن الله يهب لمن يشاء من عباده معرفة الغيب أو هي فطرة يجعلها في صفوة المؤمنين ممن فطروا على الرجوع عن عالم الحس إلى عالم الروح.

فالله تعالى وإن استأثر بعلم الغيب إلا أنه يهب رسله القدرة على إدراك بعض نواحيه فيكون إدراكهم من خصائص النبوة. وقد يصل بعض المؤمنين إلى مرتبة تدنو من مرتبة الأنبياء فينكشف عنهم الحجاب ويدركون شيئاً من علم الغيب. وهناك غير هؤلاء فئة ثالثة كان لهم من سلامة الفطرة أو معالجة

النفس بأنواع الرياضة أو حلول مرض يصرف قوى النفس عن الاهتمام بشهوات الجسد أو نحو ذلك فيدركون شيئاً من علم الغيب.

والسبب في هذه القدرة على إدراك الغيب تحرر النفس من علائق البدن وإنصراف المزاج عن موارد الحس فليس يمنع النفس من تعقل المدارك الغيبية إلا انغماسها في البدن والحواس فإذا ما تجردت من هذه المحسوسات تطلعت إلى الذوات التي فوقها في الملأ الأعلى لما بين أفقها وأفقهم من وجوه الاتصال فتقتبس النفس منها علماً ومعرفة وعلى هذا جاز وقوع العلم بالغيب لمن استطاعوا أن يزيلوا حجاب الحس في يقظة أو منام.

والقرآن الكريم قد حصر بالغيب في الله وحده قال تعالى: " وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ" وكرر هذا المعنى في أكثر من آية ولكن الله يطلع على غيبه من يجتبيه من رسله: "وما كان ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله ما يشاء". ويقول الله تعالى كذلك "عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم".

ويتضح من هذه الآيات أن الله وحده هو العالم بالغيب وأنه يجتبي من رسله من يطلعه على الغيب. ولكن أهل السنة يرون أيضاً أنه في الإمكان إطلاع غير الرسل على الغيب إطلاعاً لا يفيد أكمل مراتب العلم أو قصر إطلاعهم على بعض ميادين الغيب وبذلك فرقوا بين اطلاع الرسول واطلاع غيره من صفوة المؤمنين.

ولقد أفاض ابن خلدون في مقدمته الكلام عن المدركات الغيبية

ويعتبر كلامه أنموذجاً للتفكير الإسلامي في هذه الناحية لذلك رأينا أن تختم هذا الكتاب بخلاصة ما ذكره ابن خلدون في هذا الموضوع على النحو التالي.

"إننا نجد في النوع الإنساني أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس. ولا يرجعون في ذلك إلى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها، إنما نجد ماركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها، وذلك مثل العرافين والناظرين في الأجسام الشفافة كالمرايا وطساس الماء، والناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها، وأهل الزجر في الطير والسباع. وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى، وهذه كلهاموجودة في عالم الإنسان لا يسع أحداً جحدها ولا إنكارها وكذلك المجانين يلقي على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها، وكذلك النائم والميت لأول موته أو نومه يتكلم بالغيب، وكذلك أهل الرياضيات من المتصوفة لهم مدارك في الغيب على سبيل الكرامة معروفة. فالنفس الإنسانية ذات روحانية موجودة بالقوة بين سائر الروحانيات وإنما تخرج من القوة إلى الفعل بالبدن وأحواله وهذا أمر مدرك لكل أحد، وكل ما بالقوة فله مادة وصورة، وصورة هذه النفس التي بها يتم وجودها هو عين الإدراك والتعقل فهي توجد أولاً بالقوة مستعدة للإدراك وقبول الصور الكلية والجزئية ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها بوجود مدركاتها المحسوسة عليها، وما تنزع من تلك الإدراكات من المعاني الكلية فتتعقل الصورة مرة بعد أخرى حتى

يحصل لها الإدراك والتعقل طوراً بالفعل فتتم ذاتها وتبقى النفس كالهيولي والصور متعاقبة عليها بالإدراك واحدة بعد واحدة. ولذلك نجد الصبي في أول نشأته لا يقدر على الإدراك التي لها من ذاتها لا بنوم ولا بكشف ولا بغيرها وذلك لأن صورتها التي هي عين ذاتها وهي الإدراك والتعقل لم يتم بعد، بل لم يتم لها انتزاع الكليات، ثم إذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الإدراك: إدراك بآلات الجسم تؤديه إليها المدارك البدنية وإدراك بذاتها من غير واسطة، وهي محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وبشواغلها لأن الحواس أبداً جاذبة لها إلى الظاهر بما فطرت عليه أولاً من الإدراك الجسماني، وربما تنغمس من الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة إما بالخاصية التي للإنسان على الإطلاق مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق، أو بالرياضة مثل الصوفية، فتلتفت حينئذ إلى الذوات التي فوقها من الملأ الأعلى لما بين أفقها وأفقهم من الاتصال في الوجود، وتلك الذوات روحانية وهي إدراك محض وعقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها فيتجلى فيها شيء من تلك الصور وتقتبس منها علوماً، وربما رفعت تلك الصور المدركة إلى الخيال فيصرفه في القوالب المعتادة، ثم يراجع الحس ما أدركت إما مجرداً أو في قوالبه فتخبر به. وهذا هو شرح استعداد النفس لهذا الإدراك الغيبي.

ولبيان أصنافه نقول إن الناظرين في الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالحصى

والنوى فكلهم من قبيل الكهان إلا أنهم أضعف رتبة فيه في أصل خلقهم لأن الكاهن لا يحتاج في رفع حجاب الحس إلى كثير معاناه، وهؤلاء يعانونه بانحصار المدارك الحسية كلها في نوع واحد منها، وأشرفها البصر فيعكف على المرئي البسيط حتى يبدو له مدركه الذي يخبر به عنه. وربما يظن أن مشاهدة هؤلاء لما يرونه هو في سطح المرآة وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون في سطح المرآة إلى أن يغيب عن البصر، ويبدو فيما بينهم وبين سطح المرآة حجاب كأنه غمام يتمش فيه صور هي مداركهم فيشيرون إليهم بالمقصود لما يتوجهون إلى معرفته من نفي أو إثبات فيخبرون بذلك على نحو مرئي كله. أما المرآة وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه في تلك الحال وإنما ينشأ لهم بها من هذا النوع الآخر من الإدراك وهو نفساني ليس من إدراك البصر بل يتشكل به المدرك النفساني للحس. ومثل ذلك ما يعرض للناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وللناظرين في الماء والطساس وأمثال ذلك. وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور فقط ثم بالعزائم للاستعداد. ثم يخبر كما أدرك ويزعمون انهم يرون الصور متشخصة في الهواء تحكي لهم أحوال ما يتوجهون إلى إدراكه بالمثال والإشارة، وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من الأولين.

أما العرافون منهم المتعلقون بهذا الإدراك، وليس الاتصال — فيسقطون الفكر على الأمر الذي يتوجهون إليه ويحذرون فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتولونه من مبادئ ذلك الاتصال والإدراك ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة.